## كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل

### شعر ادونيس

منشورات المكتبة العصرية في بيروت

***

لست ادري كيف ابدأ الكلام على شعر ادونيس ، فقد رافقت تطور شعره وتخطيه ، ورافقت تحولاته مرحلة اثر مرحلة . وكنت في هذه المراحل جميعا انظر الى شعره من الداخل ، حتى ليصعب علي ان ادرسه دراسة موضوعية ، اذا كان ثمة موضوعية في محاولة نقد الشعر ، لا سيما الشعر الذي نقرأه اليوم .

كلامي هنا على مجموعة ادونيس الاخيرة ، كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل . اما التحول في القصيدة الادونيسية فهو عمل مستمر ، ويظهر بوضوح في كتاب « اوراق في الريح » : البعث والرماد ، وقصيدتان للمستقبل . ولم يزل الشاعر يتخطى ويتحول ، وينجلي تخطيه وتحوله في « اغاني مهيار الدمشقي » و « كتاب التحولات » ، ولكن هناك خطا شاملا ينتظم شعره ، من قصيدة «دليلة» ( ١٩٥٠ ) حتى القصيدة الاخيرة ، وهذا الخط الجامع هو ما يدعى النفس الشعري . فالتخطي لا يعني ان يتخلى الشاعر عن شخصيته ليكتسب شخصية غيرها ، انما هو التحول الدائم نحو الاجمل .

في تحوله الاخير يصل الشاعر الى موقف صوفي حاسم : انحلال الثنائيه بينه وبين العالم انحلالا تاما ، و « السفر في فارات الداخل » ، كما تقول خالدة سعيد في المقدمة . وهذا التوحد الرهيب بين الانسان والاشياء يقابله شعور رهيب في القارىء : شعور باستبطان حياة الشاعر واكتشافها، في احاسيسها الحلوة والمرة وفي معانيها الوجودية . ففي قصائد ادونيس الجديدة قدرة على حمل القارىء ، في بيار الرؤيا او ما يشبه الرؤيا ، الى عوالم واسعة ، الى اقاليم النهار والليل . هنا تصبح اللغة كل شيء ، بهز وتأسر وتوحي ، تصبح الغاية والوسيلة معا ... اللغة في شعر ادونيس ظاهرة بارزة ، لعلها من ابرز ظواهر شعره على الاطلاق . هنا تصبح اللغة الينبوع الحي الذي يتدفق منه كل شيء : الكآبة والفرح ، السقوط والانتصار ، الشعر والطفولة ... وتصبح الكآبة والفرح شيئا واحدا ، والشعر والطفولة شيئا واحدا ، ويصبح السقوط حافزا على الانتصار وطريقا اليه ، طريقا لا تنتهي .

يقودني هذا الكلام الى الطريق في شعر ادونيس ... « كل شيء طريق » ــ يقول ادونيس . اجل ، كل شيء طريق ، لان الانسان الخلاق ، الذي ننادي له بملكوت الارض ، لا يتوقف . الارض كلها طريق له ، اما التوقف فهو الموت . اسمع ادونيس يقول في الطريق :

وكلما قلت لدربي ترى
الى متى عبء السرى ، والسرى ،
متى ارى المشتهى
وابلغ المنتهى ، واهدأ
قالت لي الدرب : هنا ابدأ .

هذه طريقه في « قصائد اولى » . اما طريقه الجديدة ، وهي كل شيء هنا ايضا ، فيقول فيها :

اعرف ان الطريق
لغة في شعوري ، لا في المكان
لغة في العروق وفي نبضها ، لغة في السريره
حيث تأتي المسافات من اول الطريق موصولة بالبريق
ببريق الفتوحات والكشف والعابرين
في التخوم الاخيره .

فهو يستشرف غيب القدر ، ويبصر كل شيء في الخطوة الاولى من المسافه . هنا تبدأ طريقه من الداخل ، من « اول الروح » ، وتنطبع على جبهته دفترا « عربي الكتابة » ، فاذا به اول المكان ، والرياح البقية، يجوب الافاق ولا يصل ... هكذا العظمة الحقيقية : لا تحد ولا تنتهي، وكلما وصل طالبها الى قمة تكشفت له القمم .

ونراه ، وهو في طريقه ، يعود الى الينبوع ــ الى « الطفولة القديمة الشيخوخة القديمة » . عندئذ يصير المرآة ، ويعكس كل شيء ، يعكس حتى ذاته ، ويرى نفسه اثنين : ادونيس الحاضر ، الذي يحمل معه الماضي ، وادونيس الذي سيجيء : « اللؤلؤ السابح » في عينيه .

هنا تدخل النار في رحم الارض وطفس الخليقة ، نار الصفاء والنقاء والنضارة . نار الحياة . نار التمرد والتجدد . نار الفينيق ، التي تطهر وتمحو وتخلق الشيء من جديد . نار البكارة الدائمة .

وفي صراعه مع الموت يتغلب عليه ، لان الخضر شفيعه ، الخضر دائما معه ، يمشي واياه على الهواء ، ويقتحمان اسوار المدينة ــ الافعى المسبعه الرؤوس ، ويطعنان الافعى الضارية : الحضارة القشورية الزائفه ، ويلبسان المدينة قناعها الاصيل : قناعا من وجوه الاطفال ... وينتصر الخضر على التنين . ويموت الموت . من هنا كانت الطفولة امل الارض . من هنا كانت الطفولة هي الصداقة ، الطفولة التي يراها في طفلته الوحيدة وفي صديقته الوحيدة .. وما همه بعد هذا اذا بقي الصديق الذي يرجى منه الكثير فارسا « في الضفاف القريبة لكنه لا يجيء » . وما همه لو بقي « العالم صحراء الغربة » ، فهو يعرف البشر كلهم ، لان سريرته الصافية حولت الصحراء الى واحة ، فقابل البشر جميعا ... هذه هي المحبة الشاملة . المحبة العظيمة التي « لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق ... »

اين الواقع في هذا الشعر ؟ الواقع ، مجسدا ، يظهر هنا : في الطريق والطفولة ، في الخيبة والكآبة ، في كل شيء . والواقع هو الفاجعة : تحجر الروح في عصر المادة ، موت القيم ، موت الانسانية في الانسان . من هنا تنقلب المقاييس ، ويحلم الشاعر بجمعية جديدة هي

« جمعية الحيوانات الميتة والحية للرفق بالانسان » . ويلاقي الشاعر، هذا الرجل الفارس ، هذا الخضر الجبار ، اليأس والكآبة والسقوط، ويتصارع معها ، ولكنه يتغلب عليها جميعا بالرجاء والايمان والمحبة ، واعظم هذه الثلاثة المحبة ، التي تحول صحراء البئر الى واحة .

بقي أن اتحدث عن شيئين في كتاب التحولات، هما الصقر واللغة. ولو اردت دراسة الكتاب بالتفصيل لتحتم علي ان اتناول شعر ادونيس برمته ، وهذا ما اتركه للمستقبل . وهناك اشياء كثيرة في كتاب التحولات يجب ان نتناولها لنكون الدراسة وافية ، مثل شكل القصيدة والوزن والرؤيا الشعرية .

اما الصقر فهو صقر قريش ، عبد الرحمن الداخل ، البطل الاموي الذي فتح الاندلس . واستخدام الشاعر حكاية هذا البطل يدلنا على ان في مصادرنا العربية القديمة طاقات كثيرة يمكن ان نفجرها ، ولكن لا تفجر هذه القوى اتكامنة سوى عبقرية مثل عبقرية ادونيس . الا ان قيمة الصقر هنا ليست قيمة تاريخية ، بل فنية بحتة . فالصقر هو الشاعر ، هو ذاته التي ذابت فيها ذوات الاخرين . وفي قصيدة الصقر شبه كبير بقصيدة البعث والرماد ، من حيث استخدام القصة التاريخية او الاسطورة ، وشبه من حيث التجربة . ولكن الشاعر لا يكرر ما قاله، لان الزمن يحمل معه التجربة الجديدة والتعبير الجديد . وعلينا الا ننظر الى التجربة الشعرية من حيث كليتها وحسب ، ولكن من حيث تفاصيلها ودقائقها ايضا . لان النظر في الكليات والنتائج الاخيرة اعتساف يخرج بالشعر عن طبيعته التي تنظر الى الكلي بعين المحسوس. من هنا اختلاف الشعر عن الفلسفة وتفوقه عليها .

اما لغة ادونيس فهي قصيدة في قلب قصيدة . لغة ادونيس هي القصيدة . هي لغة القبيلة . لغة لم تألفها من قبل ، ولكن اصالة الشاعر تجعلها لغة اليفة . فهو فارس الكلمات ، وكلماته تذهب الى ما وراء الحروف والمقاطع ، الى ما وراء التراكيب والاصوات . واذا سلمنا بأن قارىء الشعر الحديث غير موجود ، فادونيس نجح في خلق قارئه. وانا ارى ان قصائد التحولات هذه اكثر بلاغة من جميع قصائد ادونيس السابقة . فهو لم يكن في « قالت الارض » او في قصيدة « نموز » اشد بلاغة واسرا واكثر تدفقا وخطابية مما هو هنا ... فاذا كانت البلاغة مخاطبة الاخرين وايصال صوت الشاعر الى اسماعهم ، فان في التحولات بلاغة تفوق البلاغة ، لان مفعولها لا يقتصر على الاسماع، بل يتعداها الى الداخل : يهز القارىء هزا عنيفا حتى يبلغ حد المرض . وهذا ما حصل لي لدى قراءتي « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل » ، لا سيما عندما وصلت الى القصيدتين النثريتين : « تحولات العاشق » و « اقاليم النهار والليل » . فكأن الشاعر ، في استبطانه الاشياء ، ترك الاشياء تكلمنا ... وهذا ما اعتقد انه حصل بالفعل ، وهو اقصى درجات الصوفية ، تتجلى في شعر ادونيس كما لم تتجل في شعر غيره . هنا نصبح اللغة كل شيء ...

ويقولون بعد هذا ان الشعر قاصر عن ادراك الحقيقة وتصوير الواقع ، وانه يعيش في عالم وهمي من نسج المخيلة المريضة. والحقيقة ان شعرا كهذا الشعر ينقل الينا الواقع في مرارته ، ويتخطى هذه المرارة الى الفرح والانتصار ... يفتح المدينة بقناعها الاصيل: الطفولة. يعيد الينا الغابة . يبتعث القبيلة ولغة القبيلة من جديد . هذا هو الشعر : المرآة والمنارة .

وهكذا لم تعد القصيدة العربية مع ادونيس بحاجة الى منبر ( جماهير ـ تصفيق ) او مسرح (انسان يتأمل العالم الخارجي ويصفه). وقد اكد لنا ، في تجربته الاخيرة هذه ، ان الشعر العربي الحديث يقف امام اي شعر حديث وينافسه . اكد لنا من جديد ان ملكوت الانسان، ملكوت الارض ، ملكوت الطفولة ، ملكوت الابدية ـ لن يضيع . انه معنا. وها نحن ، بعد كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل ،ننتظر ان تشرق علينا تحولات جديدة .

الجامعة الاميركية — أديب صعب

# النكبة والبناء

## تأليف الدكتور وليد فمحاوي

نشر دار العلم للملايين ـ بيروت

***

بالحب والامل والثقة بمستقبل الوطن العربي خاض بنا الدكتور وليد فمحاوي رحلة طويلة من الزمن عبر مئات السنين منذ الثورة الاسلامية الى ما بعد نكبة فلسطين الى الستينيات الحالية من القرن العشرين . فشرح في اكثر من ثمانمائة صفحة قضايا الوطن العربي في مؤلفه العظيم « النكبه والبناء » المكون من جزءين . فلم يدع صغيرة ولا كبيرة الا وتحدث عنها حديث الباحث المدقق ، واندفاع العربي المكتوي بنار النكبة في فلسطين، وايمان الاشتراكي العربي بقوه الجمهورية العربية المتحدة كقاعدة للنضال العربي ، وقيادتها الطليعية المبدعة برئاسة القائد العربي المناضل الرئيس جمال عبد الناصر . فهو يتحدث عن عصور الاسلام الاولى الزاهيه بنفس الفدر الذي يذكر فيه باسى نكبة فلسطين ، الى ان يصل الى حد رسم صورة باسمة للمستقبل العربي، صورة دقيقة لم ينس خلالها حتى الحديث عن ضرورة ايجاد توازن بين الغلة الزراعيه والنتاج الحيواني ، وتحسين النتاج الحيواني وتكثيره .. الخ.. ( الجزء الثاني ص ٣٠٧ ) .

وبادىء ذي بدء ، ينبغي لنا ان نحيي جهد الدكتور وليد فمحاوي، الذي ظهر جليا في سطور كل صفحة من صفحات هذا السفر الرائع. كما ينبغي لنا أيضا ان نشهد له ايضا بوضوح الرؤيا الثورية، والشجاعة الفائقة التي جعلته يواجه نكبة الانفصال الرجعي في سوريا ، بمزيد من الايمان بالجمهورية العربية المتحدة وبثورتها وبقائدها فيقول : « وكان جمال عبد الناصر يعبر اصدق تعبير عن وجدان شعبه العربي ، وهو يتصرف في اقسى فترة من حياته ، تصرف نبي دولة لا حاكم دولة . فيؤكد عروبة مصر وحرصها عليها ، ويتحدى القوى الشريرة ـ الداخلية والعربية والاجنبية ـ التي تحاول عزلها وتحطيم ثورتها وعرقلة امال الامة العربية ، ويكتسب من تجربة الانفصال تعرفا الى الاخطاء ، ومسارعة في بناء المجتمع الاشتراكي ، ووعيا لاهمية تنظيم القوى الشعبية وتعبئتها .. ووقف قائد الثورة يؤكد للامة العربية انه : ستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة اعلامها مرددة نشيدها مندفعة بكل قواها الى بناء نفسها ، لتكون سندا لكل كفاح عربي ولكل حق عربي ولكل امل عربي » . واكد المؤلف ايمانه بالوحدة مع رئيسنا « وستبقى الجمهورية العربية المتحدة قاعدة الثورة العربية الناصرية ، وطليعة للثورة العربية الاشتراكية في الوطن العربي كافة . » ( الجزء الثاني ، ص ٨٦ و ٨٧ ) .

« في منتصف سنة ١٩٤٨ ...استيقظ العرب من اوهامهم اللذيذة المهدهدة فزعين مضطربين ... فلسطين امست اسرائيل ، وفد تشرد عربها ، بعد ان خذلت الدول الاسلامية في منظمة الامم ، وتخاذلت الحكومات العربية في ميدان السياسة والاقتصاد ، وهزمت جيوشها في ساحة الوغى ، وظهر ان المتقين الذين وعدوا بالظفر غير المتقين الذين ابتلوا بالمذلة ! » ( الجزء الاول ص ٨ ) .

بهذه الكلمات الحزينة المؤلمة لكل نفس عربية ، يفتتح المؤلف دراسته الضخمة في نكبة العرب ، اسبابها وبواعثها وحلولها . وكلما اجال الطرف في انحاء الوطن العربي سنة ١٩٤٨ ، وجد استعمار يمزق وحدته ويجثم على ارضه ويستعين بقوى الاقطاع الاستبدادية ـ التي اسماها بالقشرة الاجتماعية تمييزاً لها عن باطن المجتمع العربي المنعزل ـ ووجد تأخراً وتعفنا وجهلا وفقرا ومرضا . فراح ينقب ويدرس ويحلل جذور النكبة والتأخر العربي .

في نهاية القرن الثامن عشر كانت الصورة كالاتي : الامبراطورية العثمانية تسدل ظلاما على الوطن العربي ، ولم تكن هناك وحدة عربية في ظلها ، كانت الدولة عبارة عن ولايات يحكمها ولاة نيابة عن السلطان، يعدونها اقطاعيات مملوكة لهم ، ما ظلوا يدفعون مقدارا معينا من المال

للسلطان ، وعندما ضعفت الامبراطورية العثمانية ، انقطعت كل صلة للسلطان بالولايات والولاة ، وظلت الدولة تحتضر حتى انتهت . بينما تمكن الاستعمار من احتلال اجزاء الوطن العربي الممزقة اشلاء . وقامت الثورات والهبات في ارجاء الوطن العربي . ويذكر المؤلف ان اولى محاولات الوحدة العربية بين مصر وسوريا تمت على يد محمد علي ولكنها فشلت . ( الجزء الاول ص ٢١ ) ونود ان نذكر بأن هذه لم تكن وحدة بارادة شعبين ، انما كانت عملية ضم يقوم بها حاكم اجنبي هو محمد علي لتكوين امبراطورية ينزع ملكيتها ويلصقها باسمه .

ويستطرد الدكتور وليد قمحاوي فيتابع ـ خطأ ـ المرحوم شهدي عطية في كتابه « تطور الحركة الوطنية في مصر » في قوله عن حركة مصطفى كامل « استمرت الحركة الوطنية حركة مثقفين اساسية ، فلم تنجح في تكوين جذور قوية لها بين الطبقة العاملة .. » ونقول خطأ ، اذ ينبغي للمؤلف ان يعرف ان الطبقة العاملة المصرية لم يكن لها وجود واسع في تلك الفترة ، بعد اضمحلال حركة التصنيع بوفاة محمد علي.

وبينما الوطن العربي يسيطر عليه المستعمرون ، تمكن الصهيونيون من الحصول على وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، الذي حقق احلامهم في دولة الشعب المختار بعد تحررهم من العزلة والجمود الفكري ، ابان الثورة الفرنسية ، فتحقق لليهود تطور فكري وعلمي ، جعل منهم العلماء والمفكرين والفلاسفة ، وتزايدت حركة اضطهاد اليهود في روسيا، فازدادت عقدة صهيون وتمسكهم بالوطن القومي . وتكونت في اوروبا فئات يهودية مثقفة متمكنة من كافة اطراف العلم الحديث والتكنولوجيا. وما انتهت الحرب العالمية الاولى وانعقد مؤتمر الصلح في سنة ١٩١٩ حتى بدأت الصهيونية تشتري الاراضي بكل فرش تجمعه من اثرياء اليهود وتؤسس المستعمرات الزراعية على احدث طراز علمي ، وتستجلب لها اليهود يفلحون الارض بالوسائل العلمية ويصنعون المنتجات ، ويديرون الاراضي بلا اقطاعية . بينما كان وضع العرب في فلسطين منتهى التأخر علميا ، فالارض تزرع بنفس الطرق البدائية العقيمة ، وخيراتها تذهب الى الاقطاعيين المقيمين في المدن المنغمسين في الملذات. والانسان العربي في فلسطين يهلك فواه بلا جدوى من اجل افراد معدودين . وحتى عندما انعقد اول مؤتمر عربي في دمشق سنة ١٩١٩، وثان في سنة ١٩٢٠ ومؤتمرات اخرى ، اتخذ المؤتمرون عدة قرارات حماسية برفض فكرة الوطن القومي الصهيوني وانتهى الامر . العرب يقومون بالمظاهرات واليهود يشترون الاراضي ويؤسسون المستعمرات ويحققون الاكتفاء الذاتي بداخلها . وعندما تسلم هتلر زمام الحكم سنة ١٩٣٣ وبدأ اضطهاده لليهود ، زحف علماؤهم ومفكروهم باحدث الوان الحضارة الاوروبية الى فلسطين ، فاضافوا امتيازا جديدا لليهود في مقابل التأخر العربي . « وخلال فترة امتدت ثلاث سنوات دخل فلسطين ١٤٠،٠٠٠ مهاجر معظمهم من هذا الصنف الراقي واشترت الصهيونية من العرب ٦٠٠،٠٠٠ دونم بخمسة عشر مليون جنيه ،واخذت منهم امتياز تجفيف اراضي الحولة البالغة مساحتها ٣٥٠،٠٠٠ دونم واصبحت تملك نصف الاراضي المشجرة . » ( الجزء الاول ص ٥٩ ).

بينما ظل العرب في تناحرهم وحزبيتهم وضجيجهم . وزادت الحرب العالمية الثانية واضطهاد النازية لليهود من هجرتهم الى فلسطين. وبين الهتافات العربية والتأخر العربي قسمت فلسطين الى دولتين عربية واسرائيلية ، ووضع الاستعمار صنائعه من الولاة على كراسي الحكم في الدول العربية ، وازداد التمزق العربي والرعب العربي ازاء المذابح الصهيونية ، حتى اذا جاء يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ لم يعد ينقص اليهود سوى اعلان كيانهم دوليا ففعلوا دون مقاومة تذكر . ثم عندما خاضت الجيوش المعركة تحت العيون الانجليزية لسبب اخر غير تحرير فلسطين ، كضم اجزاء منها قبل ان يضمها حاكم عربي اخر ، وتلهية الشعوب العربية عن واقعها الاجتماعي المظلم . وبينما كان الفريق الصهيوني يؤمن ان « الحرب الحديثة هي حرب الشعب بطاقته الكاملة وحياته العامة .. فكل واحد يعتبر في الجبهة ، طوعا او كرها ، وسيان أكان رجلا ام امرأة ، كبيرا ام صغيرا . » كان الوسيط الدولي يحكي عن المنافسة الحادة بين ملك مصر وملك شرق الاردن ... فقد اخبره فاروق انه استلم عدة شكاوى من حكومة شرقي الاردن وقيادتها ، مفادها ان العلم المصري المرفوع في فلسطين اكبر بعشرة سنتيمترات من العلم الاردني ، مما اثار عدة مشاكل خطيرة يجب تسويتها ! » ( الجزء الاول ص ١٣٠ ) . وهكذا انتهت الحرب في فلسطين لصالح الصهيونيين. وكان من نتيجة الغزوة الصهيونية للوطن العربي ان تجمع الاشقياء ، والهبت النكبة فيهم روح الثورة ، ففامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ومن اهم اسبابها نكبة فلسطين . « وهكذا غدت اسرائيل رحى البلاد العربية .. ولكننا نراها كارثة اكبر ان يضيع الوطن العربي وقته وتفكيره وجهوده على مظهر الغزوة الصهيونية السياسي او العسكري، ويغفل ما في طياتها من عوامل اجتماعية واقتصادية وعلمية ، وعن كونها قاعدة ارتكاز للاستعمار وشتى الغزاة ... فينصرف عن العمل الانشائي في كل ميدان وعلى اوسع نطاق وباستمرار ، الى التفكير في مآسي النازحين العرب ، او البحث في مقدار التعويضات المطلوبة من اسرائيل او تكريس الجهود لمغامرة حربية فيها . وهذا لا ينفي ـ وانما هو دليل على ـ تقديرنا العميق لما يعنيه وجود اسرائيل من نكبة ليس التشرد او العبودية او الفناء اهم مظاهرها ، لانها التشرد والعبودية والفناء جميعا ... » ( الجزء الاول ص ١٤٩ و ١٥٠ ) .

ثم يرجع المؤلف نكبة فلسطين الى الجذور العميقة للتخلف بعد عصر الثورة الاسلامية الخالدة ، التي اعقبت مقتل عثمان بن عفان وقيام الدولة الاموية ـ وبعدها الدولة العباسية والامبراطورية العثمانية ـ وضياع الاشتراكية الاسلامية « وبعد ان كان الفلاحون يؤمنون في ارضهم ، وكانت الاراضي توزع على القادرين على اعمارها واستثمارها زمن عمر بن الخطاب ، غدت مصادر الخراج المرهق ايام الامويين والعباسيين ، ثم امسى الحكام يوزعونها كاقطاعيات واسعة للاتباعهم وغيرهم من الدخلاء . واخذت بالظهور والنمو طبقة من الاقطاعيين يتقاسم افرادها اجود الاراضي في الوطن العربي ويستغلون خيراتها وجهود فلاحيها ، وكان ان تأخرت الزراعة وخربت وسائل الري ، وازداد الفقراء فقرا ، لان الاغنياء اصروا على ان يزدادوا غنى . بل ان كل اصلاح زراعي او تقدم صناعي عرفه حديثا وطننا العربي قد احتكره الحكام والاقطاعيون لمصالحهم الخاصة . فمحمد علي اعتبر اراضي مصر ملكا له ، وانتشرت زراعة القطن فيها لمنفعة اشخاص معدودين . واسهم شركة القناة باعها اسماعيل لينفق على ملذاته ... وهذا الاستغلال الاقتصادي مما جعل الشعب ينقم على الامويين وعلى العباسيين وعلى الحكام في كل بلد في الوطن العربي . ( الجزء الاول ص ٢١٩ ) ويتهم المؤلف الحكام العرب بانهم لحفظ اوضاعهم الطبقية وامتيازاتهم، حاربوا كل فكر جديد ، وحطموا كل حرية فكرية ، وحاربوا المعتزلة واخوان الصفاء وابن عربي وابن رشد وغيرهم من المفكرين العرب . « لذلك كانت النكبة نتاج حكام تعاقبوا على وطننا الفا وثلاثمائة من السنين .» ( الجزء الاول ص ٢٤٠ ) .

ويمضي المؤلف في اندفاعه الى غايته يفكر كل تقدم عربي وكل هبة عربية وكل علم عربي وكل فكر عربي ، كقوله « وخلال مئات السنين كان كل عربي احد اثنين : اما شاكرا للحكام حامدا لنعمائهم ، او غاضبا عليهم صابرا على بلوائهم .. » ( الجزء الاول ص ٢٦٨ ) ولسنا بحاجة الى ذكر تاريخ الثورات والهبات في طول الوطن العربي وعرضه ، اذ ان معظمها وارد في المراجع الكثيرة التي ذكرها المؤلف في نهاية الجزء الثاني من مؤلفه الضخم . ومع اعترافنا بالتأخر العربي وفساد الاجهزة الحاكمة قبل نكبة فلسطين ، الا اننا لا يمكن ان نقر المؤلف على هجومه السافر ضد الشخصية العربية والشعوب العربية واتهامها « باستخذاء النفسية العربية وتخليها عن مسئولياتها وتصورها انها الات مسيرة في ايدي الفئات المتسلطة .. » ( الجزء الاول ص ٢٧٠ و ٢٧١ ) فبدون خوض في بطون كتب التاريخ ، لا نحسب ان المؤلف يغفل عن الاشادة بثورة ٢٣ يوليو المجيدة في مصر ، وثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق ، وثورة الجزائر ، وثورة اليمن ، والثورات المتعددة في كافة ارجاء الوطن

العربي ضد الاستعمار والرجعية والتخلف والنكبة . كما لا يمكن ان نقره على ان « النكبة الحانقة بالوطن العربي استمرت ثلاثة عشر قرنا.» ( الجزء الاول ص ٢٨٦ ) لاننا بذلك نلغي الصفحات المجيدة في التاريخ العربي ، بل نلغي القومية العربية ذاتها ، لان القومية العربية لم تشهد اقصى حالات ازدهارها الا بعد ظهور الاسلام وامتداد الفتوحات الاسلامية مع مسيرة الزمن . بل لا بد ان نشيد بتأثير الازدهار العربي بعد الاسلام في تقدم البشرية جمعاء .

وفي فصلين متتاليين ندد المؤلف كوطني عربي معتز بقوميته ، بمخاطر الانغماس في كلتا الحضارتين الغربية والسوفييتية كمظهر من مظاهر النكبة ، رغم اشادته بالثورة الصناعية في غرب اوروبا،وبالفلسفة الماركسية ونتاجها في شرق اوروبا .

واذا ما اتم الدكتور وليد قمحاوي الجزء الاول من الكتاب ( ٢٥٥ صفحة ) ، بعد ان عرض لنا في ثلاثة اقسام كبيرة ، النكبة عبر التاريخ، وعناصر الغزوة الصهيونية ، وتاثير الغزوة الصهيونية وتاثرها بالوطن العربي ، وفلسفة النكبة واخطارها في الفترة الانتقالية بين النكبة والبناء حتى قيام الثورة العربية الناصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يقودنا الى الجزء الثاني والاكبر من الكتاب في حديث طويل ممتع عن البناء ، بناء الوطن العربي وخلاصه من النكبة . فيستهل حديثه في الجزء الثاني من الكتاب بهذه الكلمات للرئيس جمال عبد الناصر : «ان القومية ليست فقط حركة سياسية ، وانما هي فلسفة اجتماعية .. انها نداء عاطفي ومصلحة مشتركة .. وكما هي شعار ، لا بد ان تكون تخطيطا اجتماعيا . وكما هي جموع وحشود ، لا بد ان تكون ايضا تعبئة اقتصادية كاملة . وكما هي طاقة حماس ، لا بد ان تكون ايضا جهدا وعرقا . وكما هي حلم ، لا بد ان تترجم الى مستوى معيشة لائق لجميع العرب . تلك هي الحماية الحقيقية للقومية العربية . ذلك انه لا كرامة لجائع ولا قوة لمريض ولا طمأنينة لمن لا بيت له ، ولا مقاومة ولا صمود لمن لا يطمئن الى غده ولمن لا يشعر ان من حوله مجتمعا يكفله ويرعاه، ولا يسلبه حقه ولا يستغله ، ومن ثم لا يهدد حريته . وسينتصر شعبنا ما بقيت لنا ارادة الحياة وارادة النصر . »

ومن هنا يتضح لنا على الفور مدى الايمان العميق الذي يكنه المؤلف للقومية العربية وللوحدة العربية وللاشتراكية ، ومدى تمسكه بالقيادة المبدعة للثورة العربية الاشتراكية . هو يؤمن ويؤكد ان لا نجاح الا بالحرية والاشتراكية والوحدة ، لا خلاص من النكبة ، الا اذا تحرر كل جزء عربي من المحيط الى الخليج ، لتعود الى الوجود الدولة العربية المتحدة ، حرة اشتراكية ، بلا استعمار ولا رجعية ، ولهذا فان الثورة العربية الناصرية الاشتراكية هي المنطلق الوحيد للثورة العربية الاشتراكية الكبرى . وهو يؤمن بجمال عبد الناصر لانه « لم ينزل من السماء ، ولم ينحدر من صلب غاز او مليك ، وانما كان واحدا منا ـ من الشعب العربي ـ ترعرع وهو يحس باحاسيسنا ، ويتكلم لغتنا ، ويؤلمه ما يؤلمنا ، ويهتف كما هتفنا ، ويحلم كما حلمنا ، ويأمل كما املنا .. انه بشر مثلنا ـ يخطىء مثلما نخطىء ، ويجرب مثلما نجرب،ويندفع مثلما اندفعنا .. انه لا يعتمد على فرمان الهي او جاه موروث او عصبية قبلية وانما علينا نحن الشعب .. » ( الجزء الثاني ص ١٠ و ١١ ) والمؤلف يشيد في وعي تام بانتصارات الجمهورية العربية المتحدة وثورتها وقيادتها ، لان هذه القيادة تمثل ابداعا حقيقيا بكشفها عن الطاقات العربية المبدعة وتحقيق اماني الامة العربية ، بابعادها العميقة ونظرتها الشمولية للوطن العربي وللعالم باسره. ويسرد المؤلف بالتمجيد المكاسب الاشتراكية العديدة التي حققتها الثورة للمواطن العربي : التأميم ، قوانين يوليو الاشتراكية ، ٢٥ بالمئة من الارباح للعمال ، اشتراك العمال في مجالس الادارة ، السد العالي ، الموقف العربي الصلب النابع من ارضنا .. الى غير ذلك . ويؤمن المؤلف بالوحدة والاشتراكية كخط وحيد واساسي للتغلب على النكبة وانشاء وطن عربي قومي من المحيط الى الخليج « تكون الثورة العربية الناصرية المنطلق الرئيسي نحو الثورة العربية الاشتراكية ، وتكون بالتالي اعظم واروع حركة شهدها الوطن العربي طوال ثلاثة عشر قرنا . » ( الجزء الثاني ص ٨٤ ) .

ثم حدثنا المؤلف عن ثورة عربية اخرى ، هي ثورة الجزائر التي اعادت العروبة الى ذلك الجزء الذي عزله الاستعمار عن الوطن العربي وعن القومية العربية ، التي تعد خطوة كبرى في طريق الثورة العربية الاشتراكية الكبرى . ثم حدثنا حديث العربي المسلم المؤمن بأن الاسلام لم يكن دينا عظيما فحسب انما هو ثورة اجتماعية شاملة من اجل تنظيم المجتمع العربي وتحريره ومنع الظلم الاجتماعي عنه واتاحة كافة الحريات له . « وبين ثورة محمد المبدعة لتحرير الوطن العربي من الغزاة وتحقيق وحدته وتخليص الانسان من الظلم والاستغلال والجمود .. وبين قيادة عمر العبقرية للمضي قدما بهذه جميعا تحت شعاره الجميل : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » .. عاش الوطن العربي اروع ايامه واكثرها اشراقا ، وادرك سكانه ان هذه الثورة هي الرد الصحيح على التحديات ـ الرد المعبر عما في وجدانهم ، والمتفاعل مع واقعهم والمحقق لامالهم ومثلهم . » (الجزء الثاني ص١٤٨).

ثم قلب المؤلف النظر في حاضر الوطن العربي فوجده اشلاء مبعثرة ، ودويلات يقوم عليها حكام يمجدون الحدود الوهمية التي فرضها الاستعمار منذ زمن قريب لتمزيق الوطن العربي ، وفوضى وخضوع فكري للحضارات الاوروبية رأسمالية وماركسية . لولا قيام نكبة فلسطين التي ايقظت الروح العربية الموحدة وجمعتها في سخط واحد والم واحد وامل واحد . فاحس الليبي باحساس السوداني، باحساس الفلسطيني تجاه اسرائيل قاعدة الاستعمار وركيزته في وطننا . ويشير هذا الكيان الصهيوني الاستعماري ، التهديد العنيف للكيان العربي ذاته لاغراض اسرائيل التوسعية في اراضي الوطن العربي ، بحيث اصبح واضحا « اننا نحن ابناء الوطن العربي المعاصرين للنصف الاخر من القرن العشرين ، نجد انفسنا في اشد المواقف حراجة ، لاننا على مفترق طريقين : البناء او الفناء .. » ( الجزء الثاني ص ١٥٦ ) .

هذه هي القضية الحقيقية التي وضع المؤلف عليها يديه وفكره ، وواصل بحثها وشرحها من خلال صفحات الجزء الثاني من مؤلفه العظيم الذي قاربت صفحاته الخمسمائة عدا . ولا طريق للبناء غير طريق الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن يجب ان تشارك الشعوب العربية قائدها جمال عبد الناصر العمل من اجل البناء ، يجب ان يطرح شعبنا العربي الاتكالية جانبا « اذ اصبحت اكثرية الجماهير وحتى الطلائع الواعية في عدة اقطار عربية متكلة على الجمهورية العربية المتحدة وقيادتها ، ومنتظرة من جمال عبد الناصر ان يأتيها بالحرية والوحدة والاشتراكية ويحقق لها كل امانيها ، بينما هي تغط في سباتها . » ( الجزء الثاني ص ١٧٢ ) . ثم يؤكد بضرورة قيام الحركة العربية الواحدة لكافة التنظيمات الطليعية في الوطن العربي وتنسيق النشاط والحركة فيما بينها لصالح التقدم العربي . ثم يؤكد ان على كل مواطن دورا اساسيا في المعركة ، معركة البناء ومواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية والرجعية ، كل مواطن له دور في الطليعة او في القاعدة. وتنمية المواطن العربي وتوعيته هي اول واجبات الطليعة العربية لوضع الاشتراكية العربية كأمل يضيء للجماهير سبيل كفاحها لانه نابع من ذاتها ومن وجدانها . فالمواطن العربي هو قاعدة البناء العربي ، واركانه الاربعة ، الاجتماعي بالقضاء على الطائفية التي تمزق الوطن العربي ، والرجعية التي تقتل نشاط المرأة نصف المجتمع ، والتأميم ، والتأمين ... والركن الثاني هو الاقتصادي ، يجب الاستفادة من كافة الثروات المعدنية والنفط ومشتقاته ونصنيعها،توزيع الارض على من يزرعها وزرعها بطرق علمية واستصلاح الاراضي وزرع الصحارى ، وايجاد التوازن التجاري في الميزان التجاري والتخطيط ، والاقتصاد الموجه . فاذا ما اتينا الى الركن الثالث ، الفكري ، فيجب ان تمحي الامية ويجب تقديس الوقت واستغلاله للصالح العربي الفردي والاجتماعي. ويجب منح فرص متكافئة في الثقافة والتعليم ، ويجب تخطيط التعليم بحيث

يصبح تربية للنشء العربي ، وتطوير اللغة العربية والثقافة العربية وتحريرها من الجمود ، واطلاق كافة الحريات الشخصية والسياسية. الثقافة العلمية المخططة هي سبيل البناء العربي ... الركن الرابع ، السياسي ، التحرر الكامل من الاستعمار القديم والجديد ، من كافة اشكاله والوانه سواء كانت قواعد عسكرية او معاهدات وتحالفات عسكرية ، وتحرير المواطن اجتماعيا سيحرره سياسيا ويؤمن حرية الانتخابات ، وسلطة المواطن ورقابته على الاجهزة التنفيذية والتشريعية، ثم الوحدة العربية الاشتراكية التي يجب ان تبنى على ارادة شعبية قوية ، يجب ان تكون وحدة قوية متينة لا اتحادا فيدراليا او شبه فيدرالي . واتخاذ سياسة تحررية استقلالية تقوم على الحياد الايجابي وعدم الانحياز والسلام العالمي . وسقف البناء العربي هو الرسالة الانسانية ، يجب ان تكون لنا رسالتنا النابعة من تاريخنا ووجداننا وتراثنا الاصيل ، مع استفادتنا بكافة الانجاهات الفكرية التي اثرت الفكر الانساني ، على الا نقتصر على الاشادة بالماضي العربي التليد ومحاولة الجمود عنده .

هذا هو السبيل لليقظة العربية والبناء العربي وللقضاء على النكبة وتلافي اي نكبة اخرى . وخلال كل ذلك تبنى المؤلف وجهة نظر الطليعة العربية في الجمهورية العربية المتحدة تبنيا كاملا « وما دمنا قد اعتبرنا الجمهورية العربية المتحدة نواة نموذجية فاننا نستطيع القول بأن مستقبل هذه المنطقة يعتمد على التناسب الديناميكي بين الجمهورية العربية المتحدة واسرائيل . وقد جاءت صفة الديناميكية عمدا ، لتدل على اننا لا نقصد بهذا العدد والكمية ، وانما الكيفية والثورية . » ( الجزء الثاني ص ٤٣٢ ) . ولم يغفل المؤلف اشياء كثيرة كضرورة قيام الكيان الفلسطيني ، والجيش العربي القوي .. الخ. وانما نحن الذين اغفلناها عمدا لضيق المجال وقصوره عن استيعاب هذا العمل الضخم العظيم الذي يثلج صدر كل عربي ، ويملأه بالثقة والبهجة والامل .

على ان لنا بعض العتاب على ما نعده هنات كان اجدر بالمؤلف ان يترفع عنها وينتبه لها ، وهو الكاتب العربي التقدمي الواعي بقضايا وطنه ، المحيط احاطة شمولية بالفكر الانساني في حركة تقدمه وتطوره . ففي صفحات الجزء الاول من صفحة ٩٤ الى ١٠٠ ، يتحدث عن الشعب العربي في مصر فيزعم ان ثورته سنة ١٩١٩ لم تؤمن بها عناصر كثيرة منه ، ويؤكد ان كفاح الجماهير في مصر انتهى بتسلم سعد زغلول مقاليد الحكم فيها ، ثم يسير في طريق المغالطة التاريخية عندما يؤكد ان معاهدة ١٩٣٦ تعد منطلقا للشرف والاستقلال لو اخلصت الجماهير في السير على هديها ولم تمض «في نومها اللذيذ» (ص٩٨) بل والى ابعد من ذلك يذهب الدكتور قمحاوي فيصف فترة الهجوم على العلمين في اواخر الحرب العالمية الثانية بان مصر « كانت اشبه بامرأة » ، « والحرب سجال في ارض مصر ، بينما سكانها ـ بفضل فادتهم ـ في غفلة سادرون .. » ( ص ٩٩ ) وفيما بعد نكبة فلسطين « كان الشعب منفسما على نفسه » ( ص ١٠٠ ) .

لا يا دكتور قمحاوي ، هذا ليس حديث تقدمي عربي ابدا ، كيف تتهم ثورة الشعب المصري العارمة سنة ١٩١٩ بانها لم تمثل الا عناصر قليلة ، الثورة التي شارك فيها كل مصري بروحه ودمه ، والتي اغفلت قيادتها البورجوازية المضمون الاجتماعي الحقيقي لها ؟ اما وصف معاهدة ١٩٣٦ بالشرف والاستقلال فذلك ما ذهبت اليه قيادة البورجوازية المصرية ممثلة في الوفد المصري . ولكن الشعب ظل في ثورة دائما ضد هذه المعاهدة التي اعتبرها صك العبودية ، لانها بنصوصها كانت تكبل كل حرية واستقلال لمصر ، وما محاولات الراسمالية المصرية بقيادة اسماعيل صدقي لاستبدالها بمعاهدة صدقي ـ بيفن ، وتمزيق شعبنا الواعي لها الا دليل على عنف المقاومة الشعبية لمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد قدمت جماهير شعبنا الواعية من الدماء ما ينفي عنها صفة النوم، ولم يكف شعبنا عن الثورة وتقديم الشهداء حتى قامت طليعته الواعية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولم يمل شعبنا وجيشنا من المحاولات الهادفة لاستقلال الصراع الاستعماري الدائر على اطراف حدودنا في شمال افريقيا ـ لصالح التحرر ، وما محاولات الفقيد عزيز المصري وطليعة الضباط الاحرار ابان تلك الفترة الا احد الامثلة لكفاح شعبنا الصلب.

كما لا نستطيع ان نقر المؤلف على اندفاعه في اتهام الشعوب العربية بأنها كانت « غارقة في جهلها وغفلتها .. » ( ص ١٢٧ ) فما هكذا يكون الحديث عن الشعوب المكافحة بل يجب القول ان حكام الشعوب كانوا نياما بينما الجماهير تغلي بالثورة ونعمل لها . بل انه يتجاهل حتى الفترة التاريخية الهامة بين الغاء معاهدة ١٩٣٦ في ٨ اوكتوبر ١٩٥١ وقيام الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما تخللها من ثورة الغضب التي قام بها الشعب المصري في ٢٦ يناير ١٩٥٢ واحراق الرجعية والاستعمار للقاهرة ، وكفاح الفدائيين والبوليس المصري في منطقة قناة السويس. وعشرات المعتقلات التي غصت بالمئات من شبابنا المكافح . فهو يصف هذه الفترة بأن « مصر في طور انتحاري شنيع » (الجزء الاول ص٣١٠) قمة اليقظة في شعبنا يعتبرها انتحارا . ويعمد المؤلف الى استخدام كثير من التعميمات الخاطئة بانهامه كل المثقفين ، كل النشاط الثقافي، بالتضليل والتسلية الفارغة . وبالزعم بان الاستعمار ادخل بعض التغييرات الحضارية في البلاد العربية المستعمرة ...

هذه وغيرها من الهنات التي تناثرت خطأ في الكتاب ، لا تضعف من كون الكتاب اثراء حقيقيا للمكتبة العربية وللنضال العربي ، وما اكثر ما يجب ان يكتب عن كتاب « النكبة والبناء » ، ولكن مهما كان نوع الكتابة ، فانها لن تفني اطلاقا عن قراءة هذا المؤلف الفريد الرائع.

القاهرة — احمد محمد عطية


طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء